المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الخامس والثمانين

١ دیسمبر سنة ١٩٣٤ — ٢٣ شعبان سنة ١٣٥٣

أثر العلم الحديث

في خلق الفرد وخلق الجماعة [1]

— ١ —

موضوع حديثنا الليلة ، « أثر العلم الحديث في خلق الفرد وخلق الجماعة » . وهو موضوع مترامي الاطراف وبعيد الغور في آنٍ واحد . لا نستطيع ان نلمّ اطرافهُ ولا ان نحيط بجوانبه في خطبةٍ واحدة ولا في كتاب واحد . وقد لايكون ذلك في مستطاع رجل واحد . فالعلم الحديث يمتدُّ في الناحية النظرية من الذرّة واقسامها الى الشموس الكبار والسدم العظيمة المنثورة في رحاب الكون المتباعدة بعضها عن بعض ، ومن دراسة الاحياء على اختلاف قُبُلها واقسامها وانواعها واسرار كفاحها واساليب توارثها الصفات على كرّ الدهور ، الى دراسة الانسان سيّد المخلوقات ، بل هو يسمو او يحاول ان يسمو الى دراسة العقل الانساني وخفايا التفكير واطوار النفس على تزعتها المتباينة . اما من الناحية العملية فالعلم الحديث متغلغل في بناء الحضارة الحديثة ، لان الآلة اساس هذه الحضارة ، تسيطر على نواحي العمل فيها ، واحوال الاجتماع البشري ، فلا نكاد نعيش ساعة واحدة من دون ان نحتاج في خلالها الى الآلة او الى بعض منتجاتها

وخلق الانسان هو مجموعة الطبائع والتقاليد والمقاييس الادبية والاجتماعية التي يقيس بها اعماله كفردٍ ، او كعضوٍ في جماعة من حيث الضرر والنفع والخير والشر . فهو متصل باطوار اجتماعية

(١) المحاضرة التي القاها رئيس تحرير المقتطف في نادي جمعية الشبان المسيحية في القدس بدعوة منها

على سطح الارض ، متأثر باحوال معاشه واقتصاده ، وقرائنه تفكيره واصول علمه ، متأثر بوجه عام بنظرته العامة الى الكون والحياة

ولكنَّ هذا التشعب في الموضوع ، وهذه المواصلة للنبشة في ارجائه ، المستمدة من اتصاله باصول الحياة الانسانية وادوار الاجتماع البشري ، يجب ان لا تحول دون الالمامة بعض نواحيه . بل ان هذه الالمامة السريعة لا بدَّ لنا منها ، لان الامر ، غير مقتصر على فكاهة عقلية ، نتمتع بها ساعة وننساها ، بل هو متغلغل في حياتنا اليومية ، وتفكيرنا في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، وسلوكنا الاجتماعي بوجه عام افراداً وجماعات

***

فنحن ايها السيدات والسادة ، نعيش في عصر تسير اجناد العلم في ركابه ، وتباري مواكب الامم في ظل لوائه الخفاق ، وتبث حقائقه واصوله في كل ما جلَّ وهانَ من شؤون حياتنا اليومية سواء أكانت عملية ام غير عملية

سرحوا الطرف في جنبات هذه الردهة الزاهية بحضوركم ، فاذا ترون ? انواراً متلألئة استنبط العلم طاقتها من قوى كامنة في ذرات المادة المتناهية في الصغر ، وجدراناً أقامها العلم وسوّاها على اصول محكمة من الهندسة والكيمياء ، وحريراً صنعهُ العلم من مادة الخشب فغلب دودة الحرير في ميدانها ، وملابس اتقن العلم فتل اليافها وصبغها وغزلها ونسجها بآلات كأنها الاحياء ذكاء ، ولكنها تفوق الاحياء قوة ودقة ومضاء

او زوروا حقلاً من حقولكم الزراعية ، تروا فيها الاسمدة الكيماوية ، وقد حبس فيها نتروجين الهواء الطلق ، بقوة الكهرباء وحيلة التأليف الكيمائي ، واصنافاً من النبات والحيوان ، تبثّ فيها العلم الصفات والمميزات التي يرغب فيها الانسان ، وأمراضاً قد دانت لصبر العلماء وذكائهم وشوقهم الى استطلاع المجهول

او تأملوا أجسادكم ، كيف مكن العلم الاطباء من اسرار حياتها وقواعد صحتها واسباب مرضها ووسائل علاجها . فمن سبعين سنة كان الانسان لا يعرف شيئاً عن الجراثيم التي تسبب الامراض فاذا الهواء في نظرنا الآن يعجّ بهذه الأحياء الدقيقة ، المفيدة احياناً في التخمير والتحليل والدباغة والتجبين ، المضرّة احياناً اخرى بما تنشئه في اجسام الاحياء من بواعث السقم . وقد أصبحت معرفتنا هذه سبيلنا الى استعمال المطهرات ومضادات الفساد واساليب التلقيح والحقن ، فنتقي بها عوادي الاوبئة قبل وقوعها ، او ندفع كوارث الامراض عن طوائف كبيرة من المصابين بها

أتيت مدينتكم التاريخية الجيدة أمس ، على جناح طيارة ، قطعت المسافة بين القاهرة واللدّ في بضع ساعات ، مع ان بني اسرائيل قضوا في اجتياز صحراء سيناء اربعين سنة . او لم يأتكم نبأ الطيارين سكت وبلاك ، كيف اجتازا المسافة بين لندن وبورت داروين باستراليا في يومين وخمس يوم ، مع ان

أسرع البواخر لا تقطع هذه المسافة في أقلّ من شهر أو اربعين يوماً ؟ ولو شاء مستمرٌ جاءتكم المهم ، ان أخاطبكم وانا الى مكتبي في القاهرة ، لتمّ لهُ ذلك . فالامواج غير السلكية اطوع لنا الآن من خاتم البنصر ، انها تحيط بالأرض حاملة على أجنحتها السحرية ، الصور والأنباء : أنباء النجاح وانباء الخيبة ؛ انباء السرور وانباء الحزن ، انباء الحرب وانباء السلم ، انباء المكتشفات الخطيرة التي تنشئ في التاريخ الانساني حدوداً للزمان ، وانباء الصغائر والمكائد التي تدلنا على ان هذا الانسان الذي بلغ تلك القمة من الابداع العقلي ، لا يزال طفلاً في مهد الروح

او تصوروا الطاقة العظيمة التي هي رهن تصرفنا الآن . زرت من بضع سنوات معمل هيلند بارك في دترويت ، حيث تصنع طائفة من سيارات فورد ، فدخلت الغرفة التي تولّد فيها الطاقة الكهربائية ، فاذا مولداتها الكهربائية تطلق اطلاقاً مستمرّاً طاقة قدرها ستون الف حصان او تزيد . وهي رهن اشارة مهندس فرد ، او نفر قليل من المهندسين ، يسيطرون عليها ويتصرفون بها كما يشاؤون . او خذوا سيارة من سيارات السباق التي استعملها السر ملكم كمبل على شاطئ دیتونا في اميركا . فالطاقة التي تنطلق بها السيارة كالسهم المارق تبلغ قوة الف حصان مجتمعين . او تأملوا الطيارة التي كسب بها الملازم الايطالي «اجلي» قصب السباق في السرعة اذ بلغت سرعتها نحو ٤٣٠ ميلاً في الساعة تجدوا طاقتها تحصى بأكثر من الف حصان . ولقد قدر احد علماء الاحصاء الحدثين ، ان الطاقة الميكانيكية المستعملة في الولايات المتحدة الاميركية المستمدة من الفحم ومساقط المياه وغير ذلك ، اذا وزعت على سكان تلك البلاد البالغين مائة وعشرين مليوناً او يزيدون ، بلغ متوسط ما يصيب الواحد منهم طاقة ثلاثين حصاناً !

أو اخرجوا في ليلة صافية الاديم ، وارفعوا بصركم الى السماء ، واتخذوا من الفكر والتصور مطية ؛ ومن السر جيمز جينز دليلاً ومرشداً ، تروا الكواكب تعد بالملايين او عشراتها ، والمسافات بينها لا تقاس الا بملايين من سني الضوء ، ومع ذلك فأنتم لا ترون الا كتلة واحدة او مجموعة واحدة من النجوم تعرف بالمجرة ، ووراءها مجرات لا تحصى ، كأنها الجزائر الكبيرة منثورة في رحاب هذا المحيط الزماني المكاني الذي ندعوه الكون

فاذا كلَّ البصر وزاغ العقل لعظمة ما تشهدون ، تحولوا مع رذرفورد او احد اخوانه ، الى الجهة المقابلة ، الى الذرة التي منها مبدأ الكون المادي واليها المصير ، تروا فيها عالماً معقد البناء ، مؤلفاً من الكترونات وبروتونات ونوترونات وبوزيترونات ، وكلها اصغر من ان يجعلها اقوى ميكرسكوب يستطيع الانسان ان يصنعهُ ، بل ان رؤيتها معجزة وستبقى معجزة ، ما زال السبيل الى رؤيتها امواج الضوء الذي به نرى الاشياء . من هذه الدقائق التي لا تُرَى ، واعا نعرف بأثرها ، تتألف العناصر ، غازية وسائلة وجامدة ، لينة وقاسية ، بيضاً وصفراً وحمراً ، الى آخر ما هنالك من صفاتها المتباينة . فاذا قيل لكم ان هذه الدقائق المادية ليست الا كتلاً او مجموعات من الامواج ، وان

الخشب الذي تجلسون عليهِ والاحمر الذي تلوَّنَ بهِ الشفاه بها السيدات وعقد الاجسام الحية التي نعيش بها ونتطلع الى المثل العليا ، ليست الا امواجاً ؛ فلتمّ حديث خرافة ، ولكنهُ الحقيقة على قدر ما يستطيع العلم ان يعرف ما هي الحقيقة في وقت ما

فاذا تأملنا انواع الاحياء من حيوان ونبات، على ضوء مذهب التطور، اضطررنا ان نرتدّ مئات الملايين من السنين الى الوراء ، الى العصر الذي كانت فيهِ صنوف الاحياء تقتصر على اصول قليلة العدد ،بسيطة التركيب ، فما زال بها التحول الفجائي ، والتنازع على البقاء ، واحداث الصخر والجو والماء ، حتى تطورت هذا التطور الرائع ، في تحوله وتعدد نواحيه

— ٢ —

ايها السيدات والسادة : ان جسم الانسان يغتذي بعناصر البيئة التي يعيش فيها . غيّروا عناصر غذائهِ تصيبوا تغييراً في بنائه ، ومفاته الجسمانية وما يقوم عليها من احوال العقل والروح ، بل لقد ذهب بعض العلماء الى ان قصر القامة في شعوب الصين واليابان عائد الى غذائهم الخاص . وان مرض الفواتر وما يتبعهُ احياناً من بلادة العقل في بعض المقاطعات السويسرية سببهُ قلة اليود في غذاء سكانها .

كذلك العقل الانساني، يغتذي بعناصر البيئة العقلية التي تحيط بهِ ولا يستطيع ان يفلت منها . بدّلوا هذه البيئة، ولابدّ من ان تحدثوا تبديلاً في صوره الذهنية ، واساليب نظره الى الاشياء والاغراض العليا التي يسمو اليها . وهذه الصورة المصغرة التي رسمناها ، للعلم الحديث ، امرٌ جديد في حياة البشر ، يعود تاريخهُ الى النصف الاخير من القرن الماضي . فقد لا لمستغرب ان يكون بيننا الليلة ، من يذكر المعارك العقلية التي حمي وطيسها في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر بين اشياع التطور وخصومهِ ، بين الفس ولبرفورس والعلامة هكسلي . أو من لا يزال يذكر الانباء الاول عن التخاطب التلفوني وكيف قوبلت بالاعراض والريب . حتى السر وليم طمسن (لورد كلفن) امير علماء عصره ، دهش واعجب حين رأى تلفون « بل » الاول فصاح : إنها تتكلم

فليس بالامر العجيب ، اننا ونحن نعيش في عصر ، يحصي النجوم والمجرات بالوف الملايين ، ويقيس المسافات بسراسك[؟] الضوء ، وتاريخ الحياة على الارض بالوف القرون ، ويرجع الى الآلة في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة — في الزراعة والصناعة ، في المأكل والملبس ، في التعليم والفن ، — اقول ليس من العجيب ان تتأثر بهذا الجو الفكري ، حياتنا العقلية وصورنا الروحية ، والمثل الخلقية التي نرمي اليها . بل العجيب كلُّ العجيب ان تظلّ بمعزلٍ عنهُ غير متأثرة بهِ

***

ان أثر العلم في حياة الانسان ينبع من ثلاثة مصادر . الاول هو الانتفاع بفوائده التطبيقية وهي الفوائد التي تحدثت عنها وسائل حفظ المدوّنات وتسهيل نشرها بطبع الوف من النسخ وتوزيعها في

مختلف الاقطار . وطرق المخاطبات والمواصلات السريعة ، التي قربت الامم والافراد ، بعضهم الى بعض وازالت الحواجز الجغرافية وتخطت الحدود السياسية . ونتائج العلوم الحيوية في اتقان طرق الزراعة وتحسين أنواع النباتات والحيوان وما انبثق منها من علوم الطب والصحة العامة التي مكنتنا من مكافحة الاوبئة واطالة متوسط العمر . واساليب الصناعة الواسعة النطاق ، التي تمكن رجلاً كفورد من اخراج ثلاثة آلاف سيارة في اليوم ، او مصنعاً كأحد مصانع لنكشير واليابان الكبرى التي تنسج الوف اليردات من القطن او الصوف او الحرير في الساعة ، والتي مكنت أحد المهندسين من بناء آلة تصنع ثلاثة آلاف زجاجة في الساعة من دون ان تمسها يد او ينفخ فيها نافخ

اما المصدر الآخر ، فهو الاسلوب العلمي في البحث ، الذي بنيت عليه جميع هذه المكتشفات والمخترعات. هذا الاسلوب الذي يتوخى الحقيقة في ميدان التجربة والمشاهدة، ولا يكتفي باستنباطها من التأمل في النفس او باستنتاجها من اقوال الائمة الاقدمين . قد يستعمل الاسلوب العلمي الاستنتاجَ في بعض مراتبهِ المتوسطة ، ولا هو يستغني من انشاء النظريات لتفسير ما يجهله وتخطي ما يصدُّ سبيله . ولكن صفتهُ المميزة هي التجربة ، ومرجعهُ الاخير هو المشاهدة . فهو في قول العلاَّمة وينلم « محكمة الحقائق » . وقد أصبحنا بعد أن تغلغل هذا الاسلوب في طرق تفكيرنا لا نحاول ان نمتحن الاقوال التي تقال ، والآراء التي ترتأى ، بقياسها الى ما قالهُ ارسطوطاليس او افلاطون اوغيرهما. بل نبحث عنها بالرفش والمعول والنظارة المقربة والمجهر المكبّر والمطياف وانابيب الاغلاء والاحماء . فالحقائق التي كشف عنها هذا الاسلوب والآلات على اختلاف انواعها التي أفضى اليها تطبيقهُ ، بل والصفات التي يقتضيها من ممارسيهِ ، قلبت نظر الانسان ، الى الكون والحياة

أما المصدر الثالث فهو التحوُّل الدائم في مذاهب العلم والتنقيح المستمرّ في اصوله ومبادئهِ ، والتعديل الذي لاينفكُّ يدخلهُ العلماء على حقائقهِ متفرقة ومجموعة . فالحقيقة العلمية ابداً بنت البحث المستمر وقلّما يسري الظنُّ الى عالم بأن ما يكشفهُ هو الحقيقة المطلقة . والاَّ فهو ليس بالعالم العامل. فنحن اذ نرى المذاهب العلمية المختلفة ، التي مكنتنا من حساب الخسوف والكسوف وبناء الآلات المختلفة بدقة متناهية ، تتبدَّل وتتغير وفقاً لما يكشفهُ البحث ، وتنهار ثم يقوم مكانها ما يقتضيه التنسيق العلمي ، يصعب علينا ان نؤمن بأن قواعد السلوك الانساني مطلقة ، وأنها افرغت في قوالب ووضعت لها حدود لا يمكن ان تتعدَّاها

— ٢ —

كان الانسان في عصور الحضارات البدائية ، يعتقد ان الطبيعة متقلبة الاطوار ، وكان يسند الحوادث المختلفة، التي تخيفهُ او تبهرهُ الى آلهة مختلفة ، فللغاب اله وللجبل اله وللنهر اله وللبحر اله. فكان الناس يعالجون خوف الجوع بالذبائح والقرابين البشرية ارضاء لروح الحنطة ، وكانوا يتقربون بالضراعة الى روح النهر عند فيضان الانهر وطغيانها . وكانت صورة هذه الآلهة منتزعة في الغالب

من صور الناس انفسهم . فأنت تستطيع ان تداهنها وتتملقها بالعطايا والقرابين ، وتستثيرها بالآثام وتسترضيها بالدعاء . اما ان تجري هذه الآلهة ، في صلاتها بالناس وفقاً لنظام له سنن ونواميس ، يمكن الكشف عنها واستطلاع خفاياها بالبحث والدرس ، فظلَّ فكراً بعيداً عن عقل الانسان بوجه عام ، رغم الالماع اليه في اقوال بعض العلماء المتقدمين . فلما استخرج غليليو نواميس القوة والحركة واستنبط مبادىء الاتساق في بعض الافعال الطبيعية ، وتمكن هو وغيره من التنبؤ بوقوع الحوادث الفلكية فوقعت في المواعيد التي ضربوها ، اقتضى نجاحهم احداث تغيير اساسي في تفكير الناس ونظرهم الى تلك القوة العجيبة القائمة من وراء ظاهرات الكون العجيب

وكان « يهوه » في نظر الآباء العبرانيين ، اله القبيلة او الامة ، يدافع عنها في الحروب ، ويقيها شرَّ اعدائها ، ويوطد لها سلطانها على الارض . وصوَّر غيرهم الربَّ قاضياً جالساً في محكمته العليا وامامه القسطاس يقضي في الناس بالعدل او ابا رحيماً يرحم بقدر ما يعدل

ولكن لما اثبت غليليو وكوبرنيكس وكبلر ، ان الارض ليست مركزَ الكون ، وانها ليست الاَّ سياراً صغيراً يدور حول شمس متوسطة بين الوف الالوف من الشموس ، في مجرَّة هي احدى ملايين المجرَّات ، اصبحت صورة الله الجالس للدينونة على عرشه العلوي صعبة الاستحضار في ذهن رجل ، يرى في علم الفلك الحديث ، هذه الصورة الرهيبة ، في امتدادها الكونيّ والزمنيّ . فالصورة الشخصية للاله الديَّان الذي يرقبنا بعيني رحمته وعدله ، ويحصي علينا هفواتنا ، ويعاقبنا عليها او يصفح عنا اذا ابتهلنا اليه واستغفرناه ، لا تتسق وصورة الكون الجديدة ، التي تشمل ملايين المجرات والوف الملايين من النجوم ، دع عنك السيارات وتوابعها كارضنا وقمرها

فلما طلع علينا علماء التطوُّر ، بادلتهم المستخرجة من الصخور والطبقات المتعددة في قشرة الارض ، والعظام وما فيها من آثار ، والدماء وما تخضع له من تجارب ، وثبت ان الانسان ، انما هو رأس مملكة الحيوان ، ولكنهُ مع ذلك ليس الاَّ حيواناً ، سقطت تلك « القدسية » التي كنا نتسم بها ، اذ جعلنا ارضنا مركز الكون وجنسنا ابناء الله المختارين

فالمكتشفات الفلكية الحديثة من عهد غليليو الى الآن ثلَّت عرش الانسان في الفضاء ، والمكتشفات البيولوجية الحديثة من عهد داروين الى يومنا هذا قوَّضت اركان عرشه على الارض

وجاء في أثر هؤلاء وهؤلاء علماء النفس الحدثون ، فذهبوا الى ان نوازع الانسان ، ليست الاَّ افعالاً عكسية ، تحولت بفعل البيئة التي نشأ فيها ، وان دوافعهُ النفسية الاساسية ، التي تلوّن سلوكهُ ، ليست الاَّ دوافع جنسية ، غرضها اخلاف النسل وضمان بقائه او نوازع تبغي السيطرة والتفوق على الاقران ، فزال آخر حاجز يفصل بيننا وبين الحيوانات ، واصبح الفرق بيننا وبينهم فرق كمّ لا فرق كيف

كان اسلافنا يرون في الاحداث الطبيعية والامراض والاوبئة ، قصاصاً يستحقهُ الآثمون .

فالصرع والجنون والعمى ، والزوابع والزلازل والاعاصير والفيضانات وانفجار البراكين ، الوان من العقاب يوقعها العليّ على من خرج من ابناء عليه . اما اليوم فاننا نبحث عن بواعث الامراض في عوالم الميكروبات ، لا في خفايا الذنوب . فاذا طلع على الناس واعظ — كما يفعل بعض الوعاظ الاميركيين — وقال لهم ان اعصاراً في فلوريدا او زلزلة في اليابان ، ليسا الاّ اعرابا من قبل الله جلّ جلالهُ ، عن غضبه وحنقه ، أشاح الجمهور عنهم ، في رأي القس الدكتور سوكمن الاميركي ، ووضع اصابعهُ في آذانه دونهم ، وارتاب في صحة تجلي الحقيقة الالهية لهم ، وخاصة اذ يرى نواطح السحاب النيويوركية ، حيث تؤوي آثام لا تحصى ، واقفة كالمردة ، لا ينالها زلزال ولا أعصار . كان عصر وكان تفشي وباء بين الناس يبعث بهم الى كهنتهم لينوبوا عنهم في الاستغفار وطلب الخلاص ، فاذا تفشى بينهم وبأ من الحمى التيفودية ، اليوم ، او الطاعون ، هرعوا الى الكيماويين ، ليبحثوا في نقاء الماء الذي يشربونه والى البكتيريولوجيين في فحص الفيران التي تنادي البيوت وتراوحها والى الاطباء ورجال مصلحة الصحة بوجه عام ، ليعيّنوا وسائل الكفاح ويصفوا العلاج الناجع او العلاج الواقي في هذه الحالة او في تلك

— ٤ —

ان شريعة آداب النفس التي لا تتحول الاّ تحولاً بطيئاً كل البطء ، تتبدد اليوم بين سمعنا وبصرنا فكأنها ضباب الضحى او غيم الصيف ، والعادات المتصلة اصولها بنشأة الانسان على الارض ، الممتدة الى اغوار في التاريخ لا تبلغها الذاكرة الانسانية ، تتهاوى بين ايدينا كأنها بيوت من الورق هزّها اعصار ، او اساليب من السلوك تطفو على سطح الحياة ولا تتصل بجذورها

ففروسية القرون الوسطى ، التي بدت في عصرنا مفرغة في قالب الادب الخاص في معاملة النساء بلطف وكياسة واحترام ، لم تثبت على تحرر المرأة الاقتصادي . لقد قبل الرجل — مرغماً — تحدي المرأة اذ طلبت المساواة به ، فصار يعسر عليه ان يعد جنساً قسرتهُ الاحوال الجديدة على النزول من العرش الذي جلس عليه الى الميدان والشارع . ونحن ما نزال في الشرق متأثرين بذلك الادب القديم ، الرائع الجمال ، فننهض في المركبات العامة لنخلي مكاننا لسيدة واقفة ، ولكن من يعش في مدينة مثل نيويورك او لندن او باريس حيث بلغت المرأة كامل حريتها الاقتصادية ، لا يحفل بسيدة واقفة ، بل يعاملها على قدم المساواة بالرجل ، على انها احد طلاّب الرزق ، احد المنافسين له في ميدان العمل . اما الزواج الذي كان سبيل الاجتماع ، الى حفظ النوع على اسلوب منظم ، ووسيلة الى افراغ الحياة الانسانية والسلوك الانساني في قالب مستقر ، فقد اخذ يفقد استهواءه واغراءه ، لأن الانسان بعد اطلاعه على اساليب بعض العلوم الحديثة ، ادرك انهُ يستطيع ان يجني بعض مسرات الزواج من دون ان يتعرض لجميع تكاليفه ، ولان الاعباء التي يحملها الزوجان في عصر الصناعة هذا

تقضي بمد سن العزوبة وتأخير سن الزواج . والاسرة التي كانت مربى الاخلاق ، قد لانت للنزعة الفردية في حياة المدنية الصناعية فتفرقت بدداً ، والبيوت التي كانت تبنى بمكابدة الوالدين لتؤوي الابناء والبنات ، اصبحت مهجورة ، وافرادها متفرقين في مختلف المدن ، يأوون الى حجر في فنادق صغيرة ، او يشترك بعضهم مع بعض في استئجار شقق ضيقة الجوانب ، كفايتهم منها سرير يضطجعون عليه ، بعض ساعات الليل او بعض ساعات النهار

وانا لندهش ، عند قراءة التاريخ ، اذ تتبيّن مدى ما يصيب ، قواعد الاخلاق وآداب السلوك من التغيّر والتحوّل مع انها قد تبدو لنا ثابتة راسخة لا يأتيها التحوّل اذا حصرنا النظر في فترة قصيرة من الزمن . فقد استنكر القديس اغسطينوس ، ان ابرهيم كان متعدد الزوجات ولكنهُ اصاب حين بيّن ان ذلك لم يكن عملاً « غير ادبي » لانهُ كان من تقاليد ذلك العهد ، ولم يكن فيه اي ضرر على الجماعة . بل ان تعدُّد الزوجات في عصر تلهبهُ الحروب وتمزّقهُ ، عملٌ اجتماعي مفيد لان متوسط الوفيات بين الرجال في حروب القبائل ، كان اكبر جداً من متوسط وفيات النساء . فتعدُّد الزوجات كان النتيجة المنطقية لزيادة عدد النساء على عدد الرجال . فكانت المرأة تفضل ان تشاطر غيرها رجلاً من الرجال ، على ان لا يكون لها رجل على الاطلاق . وليس الاكتفاء بزوجة واحدة ، الا نتيجة من نتائج نشر السلام بين القبائل في مطلع الحضارة الزراعية

***

اننا لا نعلم ، في اي عصر من عصور التاريخ ، انتقل الانسان من طور الصيد والقنص الى طور الزراعة اي من دور الهيام الى دور الاستقرار . ولكننا نعلم ان هذا الانتقال ، اقتضى تحوّلاً عظيماً في نظر الانسان الى الفضيلة والرذيلة . فبعض ما كان يحسب رذائل اصبح بفضل هذا الانتقال من قبيل الفضائل ، وامسى بعض الفضائل في عداد الرذائل . فالاجتهاد في عصر الزراعة كان مفضلاً على الشجاعة مع ان الشجاعة كانت على رأس الفضائل في عصر القنص . وفيه كان يؤثر الادخار على السلب ، وبُرى السلام اجدى من الحرب . ثم ان الانتقال الى عهد الزراعة ، بدّل من مقام المرأة فالمرأة اجدى على الجماعة في دور الزراعة منها في دور القنص ، لكثرة ما تستطيع عمله في الحقل وفي الدار . فكان خيراً للانسان في بدء عهد الزراعة ان يتزوج ، بدلاً من ان يستأجر امرأة للقيام بهذه الاعمال . ثم ان المرأة تلد اولاداً ، فلا يلبث ابناؤها ان يصبحوا عوناً لآبائهم في الحراثة والزراعة والحصاد . فالاجتماع الزراعي كان لا يقتضي من الآباء النفقات التي يتعرّض لها آباء اليوم قبل ان يصبح ابناؤهم اهلاً لخوض معترك الحياة . لذلك كانت الامومة مقدسة ، وكان ضبط النسل لو ادركت وسائله عملاً غير أدبي لانهُ يقلل الولد حيث تجب زيادتهم وكانت الأُسر الكبيرة حسنة في نظر الشيوخ والكهان

في ذلك العهد ، ثبتت اصول شريعة الآداب التي نأخذ اليوم بجانب كبير منها على الاقل ،

فتى المزرعة في ذلك العهد البعيد ، كان الفتى يبلغ باكراً في العقل وفي قدرته على الادراك . فكان اذا ادرك سن العشرين ، قادراً ان يفهم اعمال الحياة ، كما يفهمها ابن الاربعين ، وكان كلُّ ما يحتاج اليه حينئذٍ ، عزماً وذراعاً قوية ، وعيناً تتبيَّن احوال الجوّ من تقلبات الهواء . فكان يبكر الى الزواج ، حالما تعدُّهُ الطبيعة لهُ ، فلا يضطرُّ ان يعاني ما يعانيهِ ، الوف وعشرات الالوف من شبان اليوم ، في الفترة التي تنقضي عليهم بين المراهقة والزواج المتأخر . فاهل ذلك العصر لم يعانوا بطبيعة البيئة التي نشأوا فيها المشكلة الجنسية كالتي تتعرض لها اليوم ، لانهم كانوا يحلونها بحسب مقتضيات الطبيعة . اما فيما يتعلق بالنساء فقد كانت العفة لا مندحة عنها لانها قد تجلب في اثر الاعتداء عليها ، امومة لا حامي يحميها

فلما افرغت المسيحية هذه الشريعة في قانونها الادبي الخاص ، وحتَّمت على ان يكون الزواج عقداً بين رجل واحد وامرأة واحدة ، وان لا ينسخ العقد مدى الحياة ، كان ذلك مما يوافق البيئة التي تمَّ فيها هذا الافراغ . فزوجة الفلاح تلد لهُ عدة اولاد ، ومن الحق والانصاف ان يحافظ الوالدان على عهد الامانة احدهما للآخر ، لكي يتاح لهما ان يوجِّها عنايتهما الى اولادهما حتى يشب اصغرهم فاذا بلغ هذا دور الشباب ، والتفتَّ الى الوالدين ، رأيت الرغبة في التنقل قد تبدَّدت في اجهاد الجسد واندماج الروحين

فهذا النظام الصارم من الآداب ، كان على صرامتهِ ، مما تمكن ممارستهُ في الحقل ، فأنشأ في اميركا مثلاً عندما هاجرت اليها طوائف «البيورتان» قبيلاً من الناس ، يستطيع ان يتغلَّب على قارة بفضائل يرتدُّ اساسها الى كبح جماح النفس واخذها بالشدة

مضى على هذا النظام بعد انشائهِ نحو الفين من السنين ، وهو قائم ، على العفَّة والزواج الباكر والاكتفاء بزوج واحدة وولادة اولاد كثيرين ، وكان هذا ما تتطلبهُ حالة العصر ، لان الاسرة كانت وحدة الانتاج في الحقل . حتى لمَّا اطلت طلائع الصناعة على الحضارة ، كانت صناعة بيتية ، يقوم بها الناس في بيوتهم لا في المصنع ، فكان كلُّ شيءٍ مما يوثق العلاقة بين الاب والام من ناحية ، وبينهما وبين اولادهما من ناحية اخرى

— ٥ —

ثم اخذت المصانع في الظهور ، وشرع الرجال والنساء والاولاد ، يهجرون البيوت ، لينتظموا في المصانع . فُعطِّلت بذلك وحدة الاسرة وضعفت سلطة الوالدين ، وصار كلٌّ من افراد الاسرة فرداً في جماعة غير جماعتهِ ، اذ اصبح المصنع وحدة الانتاج لا الاسرة . ونشأت المدن وازدحمت بهجرة سكان الريف اليها ، وفيها بدلاً من ان ينصرف الناس الى الحرث والبذر والحصاد ، كما كانوا يفعلون في الحقول ، خاضوا كفاحاً ، هو كفاح الحياة والموت ، في مخازن ضيقة قذرة قاتمة ، او مصانع تدوّي فيها اصوات الآلات ولا يرى فيها الاَّ العجلات تدور والسيور تتحرك واذرع واسنان من الحديد

والفولاذ . وتوالت المستنبطات الميكانيكية آخذاً بعضها برقاب بعض ، فصار الاولاد يتأخرون في ادراك سن البلوغ العقلي ،حتى اذا نظرت الى الفتى في العشرين من العمر في احدى المدن الصناعية ، رأيتهُ اشبه بالطفل القاصر ، ازاء تعقيد مشكلات الحياة وتواليها . فطال زمن المراهقة العقلية وامتدت فترة التعليم اذ اصبح التعليم لا مندحة عنهُ لتوجيه العقل وملاءمته لمشكلات الحياة المنوّعة

وما ان اتى هذا الانقلاب على حال البشر ، هذا الانتقال من الزراعة الى الصناعة ، حتى اخذ من تلقاء نفسه يؤثر في شريعة الآداب الموروثة من عصر سابق . فتأخر عهد البلوغ العقلي، وافقهُ تأخر السن التي يبلغ فيها الانسان استقلالهُ الاقتصادي . بل ان هذا الاستقلال لم يكن ليتاح الآ لقلائل من الناس ، لان تعقد الحياة الاقتصادية والتواء سُبُلها ، كانا ابداً كالسيف المصلت فوق رأس العامل ، يهدّدهُ بانتزاع عمله منهُ

في هذا المعترك المنيف ، رأى الرجل المرأة وقد جرّدت من نفعها الاول في حياة الحقل . فاذا تزوج وجب عليهِ وفقاً لشريعة الآداب التي ورثها من ذلك العصر ان يحفظ زوجهُ في ستر جرّد الآن من معناهُ الاصلي المتصل بالعمل في الحقل . ذلك ان جلّ العمل الذي كانت تعملهُ الاسرة في الحقل غدا يتمُّ في الغالب في مصانع المدن ، وكل ما تحتاج اليهِ الاسرة يجب ان يُوفّى بعمل الرجل في المصنع . فاذا اصبحت الزوج اماً ، زادت المصاعب التي يواجهها الرجل . فالامومة في المدن الآن ، سلسلة محبوكة الحلقات من الاطباء والمستشفيات والممرضات والادوات والادوية ترهق الموسر دع عنك العامل او متوسط الحال . وكلما زاد عدد الاولاد التي تلد ، زادت المصاعب التي يواجهها الرجل المتوسط. لان زمن التلمذ والتعلم امتدّ الى ما بعد العشرين . يضاف الى ذلك ان نفقات التعليم بعد مراتبهِ الاولى كبيرة لا يقوى عليها . ثم ان كثرة الاولاد تقتضي توسيع المسكن وهذا يقتضي زيادة الاجرة ويحول دون السفر للنزهة ، او دون التفسيح عن الصدر في الملاهي والمراسح . والاولاد يقتضون خلع احدث الملابس عليهم ، كلٌ وفقاً للبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، فاذا بلغوا السن التي تمكنهم من كسب رزقهم نفروا من البيت الى المصنع والمتجر ، في المدينة التي ولدوا فيها ، او في مدينة اخرى ، وفقاً للرياح التي تدفع تيارات الانتاج والتوزيع وتوجهها

لذلك بدا للناس ان الامومة في البيئات الصناعية ، اشبه ما يكون بضرب من الاستعباد ، او ضرب من التضحية السخيفة في سبيل النوع ، وان المرأة البارعة لا تقبل عليها الاّ متأخرة ، بعد ان تقضي الشطر الاكبر من شبابها في ظلّ لواء الحرية

فلما وضعت فلسفة ضبط النسل وكشفت وسائله العملية ، شاعت هذه الفلسفة الجديدة في الأوساط الصناعية ، وانتشرت وسائلها ، ثم تعدّتها رويداً رويداً الى غيرها

***

ولهذه الناحية من حياة الانسانية وجه آخر . ان الانسانية ، بفضل التقدم في علوم الطب والصحة

العامة : اخذت تكشف عمّا في سلامة الجسد وصحته ، من الروعة والجمال ، فالعناية التي توجهها الانسانية الى الرياضة البدنية وتأليه ابطالها ، والثروات التي تنفق في البحث الطبي ووسائل الصحة العامة ، شاهد بليغ على ذلك . ولا تنحصر عناية الانسان الحديث ، بالصحة من وجهة روعتها وجمالها فقط ، بل تتعداها الى الشعور بأن الصحة واجب عليه ، لشخصه اولاً ، وللانسانية المثلة متمثلةً في ذرياته ثانياً . فزعماء الحركة اليوجنية — اي حركة اصلاح النسل — لا ينون عن تذكيره ، بأن عليه تبعة عظيمة نحو اولاده تقضي عليه بأن يورثهم جسداً سليماً من الاوصاب ، وعقلاً سليماً من الآفات . ونزعة التضامن الاجتماعي ، تذكره كذلك ، بأن عليه نحو المجتمع تبعةً ، تقضي عليه بأن يورثه جماعة من الذريات تتألق عافيةً جسدية ، وصحة عقلية . فهو الآن لا يبحث عن سر مرض من الامراض في غضب الله على سلف من اسلافه ، بل يبحث عنهُ بالمكرسكوب في عناقيد الكروموسومات وبكواشف الكيمياء في كريات الدم . ويحسب كل مرض يناوله الوالدان الى ابنائهما ، اثماناً للمجتمع . ومن هنا الحركة التي ترمي الى تعقيم الرجال والنساء الذين لا يصلحون لاخلاف النسل ، بعمليات جراحية بسيطة في الغالب . ومع ان هذا الموضوع ، ما زال من ناحيته العلمية في مهده ، الا ان بعض البلدان قد سنت قوانين خاصة بتنفيذ التعقيم . فقد سُنّ في ٢٧ ولاية من الولايات المتحدة الاميركية مثل هذا القانون وكذلك في بعض ولايات كندا وفي المانيا والدنمارك وبعض مقاطعات سويسرا

فموضوع لخلاف النسل ، الذي كان حتى العهد الاخير ، من الاسرار المقدسة في حياة البشرية وعليه بني في الماضي أعظم جانب من شريعة الآداب ، قد مزقت عنهُ الحجب التي كانت تحيط به واخذ يخضع لتعاليم العلم الحديث . بل قد أصبح زعماء التعليم يقولون بوجوب التعليم الجنسي ذاهبين الى ان « الاسرة يجب ان تعترف به في البيت ، والدولة في المدرسة ، لانهُ كغيره من انواع التربية العقلية والجسمية ضرورة من ضرورات الحياة وربما كان الشر الناشئ عن اهماله أعظم جداً من الشر الناشئ عن اهمالها فهو يمس صحة الجسم وصحة العقل وصحة الخلق جميعاً ويجعل النفاق والفساد أصلين من اصول الحياة الاجتماعية »(1)

— ٦ —

قلت في مطلع الحديث انا نحاول عبثاً اذا حاولنا ان نحيط بالموضوع . وقد ذكرت لكم حتى الآن طرفاً من تأثير العلم الحديث في الصورة الذهنية التي يتمثلها الانسان الحديث للرب عز وجل ، وبينت لكم أثر العلم الحديث متمثلاً في قيام الصناعة ونشوء المدن وتحرر المرأة الاقتصادي وعلوم الطب والصحة ، في شريعة الآداب من ناحية النسل واخلافه والجنس والمحافظة عليه . ولكنني لا اريد ان اختم هذه الناحية من الموضوع قبل ان اشير الى ناحية ادبية اخرى يتجلى فيها او في ما يلابسها اعظم خطر تتعرض لهُ الحضارة الحديثة

(1) الدكتور طه حسين في كتاب اسرار المراهقة بالفن تأليف الدكتور شخاشيري

من الاركان التي قامت عليها شريعة الآداب ، التي ورثناها من العصور القديمة ، فكرة الزهد كأساس للخلق النبيل . فالزهد في حقيقته ، هو القول بأن حياة الانسان لا تعتمد على المأكل والمشرب والملبس ، وان الحياة الصالحة ، يمكننا ادراكها من دون المتع المنوعة التي نطلق عليها اسماء الرخاء والترف . وهذه العقيدة طبيعية ومعقولة ، في كل جماعة تعيش على شفا الجوع ، ولا تكاد تنتزع من الأرض الا كفايتها لصد الموت . في بدء الحضارة الزراعية ، لما كانت وسائل الزراعة ضعيفة وقاصرة ، امتزج الزعماء الروحيون هذه النزعة في تعاليمهم فقالوا ان فقر الانسان لا يضيره ، وانهُ رغماً عن الفقر والقلة يستطيع ان يحيي الحياة النبيلة ، ويبلغ اسمى الاغراض. فبوذا ترك اسرتهُ ومملكتهُ وثروتهُ ليبحث عن الخلاص في مسالك الانسان المادي . اي ان تلك الجماعات ، جعلت من الزهد فضيلة حيث قلّت الاشياء التي يستطيع ان يزهد فيها الانسان

وقد اتفق ان الهيئات التاريخية التي كان لها اكبر أثر في شريعة الآداب التي توارثناها كانت في حالة مادية من هذا القبيل . ففي ايام السيد المسيح ، كان النزاع محصوراً بين فريق يسير ضعيف من الناس وسلطان روما الامبراطورية . فكانت رسالتهُ الى اتباعهِ ان لا يبحثوا عن ملكهم المرموق على الارض بل في السماء ، فقال «في بيت أبي منازل كثيرة» وحثهم على ممارسة الزهد والطهر والمحبة للمستبد

ثم تقلبت هذه النزعة في اشكال مختلفة في عهد الامبراطورية الرومانية ثم في القرون الوسطى لما أصبحت الصومعة والدير ملجأً لاصحاب النفوس التي تطلب الخلاص من محن العالم

ولكن في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، دبّ دبيب الحياة في عروق التجارة العالمية ، واخذ فريق من الناس في البلدان التي أمدَّتها الجغرافية بأسباب النجاح التجاري ، يجمع ثروة ، فجعل هذا الفريق يرى امكان الفوز بالخلاص على الارض . ولكن التاجر الاميركي من المتمسكين بشريعة الآداب المسيحية ، ظلَّ الى اواخر القرن الماضي لا يرى امامهُ الا نضالاً عنيفاً اذ واجه قارة بكراً. والنضال العنيف يقتضي الحكمة والحرص والتوفير والعمل المستمر والامتناع عن تبديد النشاط في ساح الملاهي . فالعفة وتوجيه القصد الى العمل كان مناط الامل الوحيد ، في فلسفته العالمية . هذه الجماعة من الناس التي بدأت تخرج من قتام الماضي المهدد بالقلة والجوع ، وضعت امام عيونها مثل العمل والاكباب على العمل والتفاني في العمل ، هدفاً روحيًّا لها ، فالنتيجة في نظرها كانت لا تعنيها كثيراً ، وانما الجهاد قبل الوصول الى النتيجة هو كل شيء ، وهذا هو الخلاص على الارض

وما لبثت ان توالت المخترعات العلمية والصناعية على الحضارة ، فانقشعت الناس من شبح الجوع الجاثم فوق الصدور . وما تمكن الانسان من السيطرة على مصادر الطاقة في اشكالها المختلفة ، حتى نمت الثروة الملية نمواً ، لم يدر في احلام الاقدمين ، فأصبح في ميسور الناس — وخاصة طوائف كبيرة منهم — ان يتمتعوا بأسباب من الرخاء والرفاهة والترف ، لم يرنُ اليها القياصرة . ففي عصر توافرت فيه هذه الوسائل لتسهيل اسباب الحياة وتوفير الغناء ، ترى ماذا بقي من نزعة الزهد الصحيحة ،

والتسليم والدعة والاحتمال ؟ واي انسان يرى نتنة غير محتوم عليه ان يلقي بباله الى الغد ، يستطيع بسهولة ، ان يوجه سعيهُ فقط الى صفاء الروح ونقاء القلب . قال الاستاذ جون هول في كتابه « حضارتنا المتحولة » — « فاكاد الاميركيون يغزون براري بلادهم المترامية الاطراف ، وينشئون فيها المدن والمصانع حتى رأيناهم في مجموعهم ، يهزأون من الحرص والحريص ، والعفة والعفيف ، ويحسبون التسليم كفريات المتحجات من بقايا العصور القديمة ، واصبح مثلهم اللهو والمتعة لا الطهر والصلاح . انهم يبحثون في حياتهم عن تلك المسرات ، التي عجز عنها ابناء الحضارات السابقة فأسندوها الى الآلهة » . فالمشكلة التي تواجه العصر هي ابتداع مثل روحية تفضي الى الحياة الصالحة النبيلة لا بالتخلي عن الثروة وما تيسره لنا من المتع بل بالرغم من ذلك

***

ونحن اليوم في الشرق ، على رغم اختلاف كبير في الاحوال بين معيشتنا ومعيشتهم ، وعلى الرغم من ان الاحوال الناشئة من انتشار الصناعة ، لم تتوافر بعد بين ظهرانينا ، حتى تفضي الى نفس النتائج التي افضت اليها في البلدان الاخرى فاننا مع ذلك نعاني المشكلة التي يعانونها بالتقليد والاقتباس . فالتحول في شريعة الآداب مندهم ، له صدى في حياتنا ، خافت اليوم ولكنهُ لا بدَّ ان يقوى غداً ، لاننا نقرأ كتبهم ونرى افلامهم ونزور مدنهم ونخالط طوائفهم ونلوّن افكارنا وطباعنا بتعاليمهم ونعيش — اي المتعلمون منا — في جو كالجو الذي يعيشون فيه ، وانما الفرق بيننا اننا نخلقه في الغالب تصوراً واما هم فيتنشـرونهُ في غدواتهم وروحاتهم كل صباح وكل مساء

فالمشكلة التي نعانيها ، هي هي المشكلة التي يعانونها هم . واساسها الحيرة ، التي جهر بها طائفة من كبار كتابهم ، وحاولوا ان يجدوا لها حلاً في ابتداع «المذهب البشري» Humanism . هي مشكلة ناشئة عن اننا واقفون بين عالمين — احدهما ذهب في سبيله الى جوف الماضي ، والآخر لم يولد بعد ، او هو لا يزال في المهد . فلا بدّ من ان تكون الحيرة نصيبنا كما هي نصيبهم مدى جيل من الزمان على الاقل . اننا نبحث عن شريعة للآداب ، تكون اكثر ملاءمة للاحوال الجديدة ، من شريعة الآداب التي ورثناها من العصر الزراعي ، شريعة تقوم على الذكاء بدلاً من الخوف ، وعلى القوة وحسن استعمالها بدلاً من الزهد وتلمُّس العزاء عن فقدان العالم ، فتقنع المتعلمين منا لشدة ما تراهُ فيها من الملاءمة بين نواحيها والاحوال التي تطبق فيها

هذه هي المشكلة الادبية التي يعانيها العالم . اين الحكمة واين الذكاء في استعمال قوة العلم والآلة ، استعمالاً صحيحاً ؟ ليس في تراثنا الادبي جواب على هذا . فكيف نستطيع ان نصدق ما نعلّم ، اذ يقال لنا استغفروا عن العالم ، وانصرفوا عن المسرات

وفي هذه الهوّة بين القوة العظيمة التي ابدعها العلم ، وتقصير الحكمة البشرية عن تثقيف الرغبات والنوازع الانسانية اعظم مصدر لما يحيق بالحضارة من الخطر . وقد اشار الى ذلك الفيلسوف

رذرفورد في الخطبة التي القاها عند تسلمه جائزة نوبل الادبية من بضع سنوات . فاذا افلست الحكمة البشرية وعجزت عن النهوض بهذا العبء اتجهت هذه القوى العظيمة الى التدمير والتخريب والتقتيل بدلاً من ان تتجه الى الانتاج المجدي وتوفير الفراغ للانسان فينفقهُ في طِلاب المثل العليا

— ٧ —

ومن الغريب ايها السيدات والسادة : ان نظريات العلم التي قلبت نظرنا الى الله والكون ، وتطبيقات العلم التي احاطتنا بأحوال من المعيشة افضت الى انشاء هوة بين الحياة التي نعيش والقواعد الادبية التي تنظم هذه الحياة ، قد ينطوي في تطوراتهِ الحديثة ، على بذور الحل لهذه المشكلة

فالعلم الطبيعي ، الذي احرز انتصارات عظيمة في اواخر القرن الماضي ، افضى بالعلماء الى الاعتقاد ، بأن الكون آلة خاضعة خضوعاً اعمى للنواميس التي كشفت . فكان ذلك سنداً قويًّا لفلسفة الماديين . لأنهُ اذا كان في الامكان تفسير كل دقيقة وصغيرة ، بنواميس الحركة والطاقة والجذب من اجرام السماء الى خلايا الجسم الحي ، فما الحاجة بنا الى فرض قوة من وراء العقل ، ومن وراء الطبيعة لتفسير ذلك . ولكن العلم الطبيعيّ نفسه ، كان وهو يصرح هذه التصريحات على عتبة انقلاب ، يتصل بصميمه ، وهو لا يدري . فما اثبت السر جوزف طمسن وجود الالكترون في آخر القرن الماضي ، وما تمادى العلماء في درس اللبنات الدقيقة التي تتركب منها الذرة — ومن الذرة تتركب جميع الاجسام — حتى بدأ الشك يتسرب الى عقول العلماء في كفاية النواميس الطبيعية لتعليل كل ما هنالك . لذلك نرى علماء الطبيعة الذين يعالجون نظرية «المقدار» (الكونتم) يقولون ان الاوليات العلمية ، ونواميس العلة والمعلول تتهاوى بين ايديهم اذ يحاولون تطبيقها على الدقائق الاولية كالكهرب والاوتيل . ولما كانت جميع الاشياء المادية مبنية من الالكترونات والبروتونات ، فمعنى قولهم هذا انهم لا يؤمنون الآن بالسببية او بالجبرية . والاثر النفسي الذي احدثه هذا الانقلاب ، هو ان النظريات العلمية لا تخرج عن كونها صوراً ذهنية لا تطابق الحقيقة . لذلك اصبح علماء هذا العصر فلاسفة تغلب عليهِ مسحة جديدة من سمات التصوُّف والايمان امثال جينز وادنغتن وبرزان رسل وملكن واينشتين ، والامل معلّق الآن باتحاد العلم والفلسفة في الوصول الى نظرة جديدة ، لا يرتاب العارفون ، في انها سوف تكون وافية الى حدٍّ بعيد باشباع ذلك الشوق الى المجهول ، الذي يتردد في صدر الانسان

اما الاسلوب العلمي الذي مكّن الناس من كل ما تمتاز بهِ حضارتنا الحديثة ، من الآراء والنظريات والاساليب ، فهو في صميمهِ ، مدرسة للخلق العالي . فقواعدهُ التجرُّد عن الهوى ، والانصاف بين الآراء وبين اصحاب الآراء ، والصبر والمثابرة في التجربة والامتحان ونكران النفس في سبيل الحقيقة . وكل صفة من هذه الصفات اذا لم يتصف بها الباحث العلمي ، سقطت قيمة بحثهِ . وهي في الوقت نفسهِ ، الصفات التي نرى وجوب توافرها في الخلق العالي

بل ان العلم التطبيقي في ناحيتهِ الاجتماعية ، مدرسة جديدة لخلق الجماعة . فالمواصلات والمخاطبات

الحديثة قد قرّبت بين الامم ومهّدت سبيل التعارف بين الشعوب . وكلما مضينا في تطبيق نتائج العلم الحديث تبيّن لنا انها تصدف عن الفوارق التي تفصل بيننا ، سواء اجغرافية كانت ام جنسية لم سياسية ام اجتماعية . فالانسولين الذي استنبطهُ الدكتور بانتنغ الكندي وصحبهُ في جامعة تورنتو لا يفرق في شفاء البول السكري . بين الكندي والمصري ولا بين المسيحي والمسلم ولا بين الشيوعي والفاشستي ولا بين العامل وصاحب المال . ثم ان تاريخ العلم تاريخ مشترك . ولكل امة من الامم ابطال ادّوا نصيبهم في اعلاء مناره او سقطوا في ميادين الجهاد . فامجاد العلم المشتركة تؤلف بين الامم كما تجمع المصائب بين بلدان الشرق . ولعلكم لم تنسوا قول شوقي رحمة الله عليه : قد قضى الله ان يؤلّفنا الجرحُ وان نلتقي على اشجانهِ

***

ثم ايها السادة ان العلم قد قلب اوضاعنا الفكرية ، ومثلنا الادبية ، ووضع في ايدينا قوة ، اذا اسأنا استعمالها افضى بنا ذلك الى التدهور . ولكن اتجاه العلم الحديث ، واسلوب العلم الحديث ، ينطويان على بذور فلسفة علمية ادبية جديدة ، قد نجد فيها خلاصاً من الحيرة التي تكاد تمزقنا .

كنت اقلب اوراقاً من أيام ، فوقعتُ على صورتين تمثلان غرق الباخرة تيتانيك . أما الصورة الاولى فتمثل الباخرة العظيمة وقد اصطدمت بجبل الجليد فشقّ جنبها ، واخذت تميل الى الغرق وقد كتب تحت الصورة : « ضعف الانسان — قوة الطبيعة » . اما الصورة الاخرى فتمثل قارباً مدلّى من جانب الباخرة التي تكاد تبتلعها الأمواج ، وامام القارب الحافل بالركاب ، رجل يهم بالنزول ليجلس او يقف في آخر محل فيهِ لينجو مع الناجين ، ثم تراهُ وقد ارتدّ ليخلي المكان الاخير في القارب لسيدة وراءه وهو يعلم انهُ شارب كأس الموت لا محالة . وقد كتب تحت هذه الصورة : « ضعف الطبيعة — قوة الانسان » .

ان عصر الآلة لم يسحق حتى الآن ، ولا هو تسرّ لنا النوازع الروحية في القلب البشري . انها لا تزال هناك ، مادة تصلح ان تبنى بها او تبنى عليها شريعة الآداب الجديدة .

أما انا فلا يخامرني شكٌّ في حكمة البشر . فالذكاء الانسانيُّ برهفة التعليم وتصقلهُ المرانة ، والارث الثقافيُّ بوسعة البحث وعصمةُ الاختبار . ولا بدّ ان يجيء يوم — لن ندركه نحن وقد لا يدركه اولادنا — تلحق فيهِ عقولنا بالآلات التي استنبطتها . وترتفع حكمتنا الى مستوى المعارف التي انتزعناها من صدر الطبيعة . وتسمو اغراضنا سموّاً يمكننا من السيطرة على القوى الصناعية العظيمة رهينة اشارتنا وتوجيهها

عند ذلك ندرك ان اعظم رجال الدولة كأعظم المصلحين ، من يرشد بالمعرفة والعطف ، لا من يستفزّ بالتحكّم والعنف ، وان اعظم الجماعات ، جماعة لا تخضع للقوة بل تعنو للحكمة . عند ذلك يكون العلم قد اندمج في اغراض الروح العليا فخرج لنا من البوتقة إكسير الحكمة المنشاة